

## سنة الذئب الحرام الحزين

### مقدمة

شوق المَعُ شاعر في تاريخ أدبنا العربي الحديث لتعدد فواحيه الفنية ، وتشعب آثاره الأدبية ، فقد ملأ عصره بقصائده الغنائية ، ووَصَلها بمسرحياته التمثيلية . وكان حين ينشر قصيدة تصبِح حديثَ الصحف والندوات الأدبية ، وكذلك كان حين ينشئُ مسرحية أو تمثيلية .

وقلما ظهر كاتب أو ناقد في عصره إلا حاول أن يطير إلى الشهرة بتعرضه لأعماله ، فتارة يصطدم به وبآثاره ، وتارة يبني عليه ويغلو في ثنائه . فنقاده كانوا في حياته بين اثنين : متحزبٍ له أو متعصبٍ عليه ، وما يزال هذا شأنهم حتى اليوم ؛ كأنهم يقودون معركة .

وعلى نحو ما نعرف في المعارك من كثرة الأسلحة التي تُسْتَخْدَمُ كانت المعركة حول شوقٍ وشعره مغنياً وممثلاً ، فلا توسط ولا اعتدال فيما نقرأ عنه ، بل غبار كثيف تضيق في ثناياه الحقائق الأدبية ، ويضيع الثبوت والتوقف والنظرُ التام النافذ

وطبيعي أن لا يظهر في أثناء ذلك بحث منظم عن شوقٍ ، فقد اكفهرت الأجواء الأدبية لإزائه بالثناء المسرف والطنع المحجف ، وأصبحنا لا نعرف أين الوجه الصحيح ، ولا أين المقدمات السليمة ، ولم نعد ندرى أى الأحكام فيه صائقٌ وأيها كاذبٌ ، وأيها مصيبٌ وأيها مخطئٌ

وبذلك عُيِّبَتْ علينا حقيقة شوقٍ ، بل حقائقه الفنية جميعاً ، وكان هذا أكبر باعث لى على النهوض بهذه الدراسة التي لم أقصد بها إلى تهجينه ولا إلى تحسينه ، وإنما قصدت إلى بحثه ووزنه بمعايير سهلة هي معايير النقد المنصف

الذى لا يجمل مع الهوى . وإنما يسجل الظواهر الأدبية متبعاً مستقصياً ، فليس همه أن يُزرى ويتنقّص . ولا أن يزخرف ويزين ، وإنما همه أن يصور الحق ويكشف الصواب

وبدأتُ بحياته . أتخذ منها مصابيح ، تهديني الدروب والمسالك التي كوّنت شاعريته . وبحثت في صناعته ، وأطلعني ابنه «حسين» مشكوراً على ثلاث مسودات أولاهما لقصيدته «الله أكبركم في الفتح من عجب» والثانية والثالثة لفصل من «مجنون ليلي» فاستبان لي الطريق ، وعرفت كيف كان يؤلف قصيدته ، وكيف كان يؤلف مسرحيته . وحاولت جهدي أن أستنبط مدى بديهته وقوى فطرته ، وإلى أى حد كان يجبر في أساليبه ويتأق في تصاويره ، مستخرجاً من قيثاره الشعر العربي أحلى أنغامها وأروع ألحانها . ورأيتُ - رأى العين - في هذه الصناعة البديعة تيارين يتقابلان : تياراً شرقياً عربياً ، وتياراً أوربياً غريباً .

ووقفت بعد ذلك عند المؤثرات المختلفة التي أثرت في صناعته ، وتأملت في معاول النقد القديم المحافظ والحديث المجدد التي ضربت بها أيدي نقادنا في شعره . وناقشت مناقشة هادئة كثيراً من المبادئ الهادمة لشوقي وفنه ، مستبصراً في ذلك متأنياً ما وسعني الاستبصار والتأني .

ونظرت في مؤثر مهم أثار في شعر شوقي وفي صناعته ، إذ أخذ يخاطب الجماهير عن طريق الصحف اليومية والأسبوعية ، فاتسع النداء عنده ، حتى في قصيدة المديح التي وُجّهت لصاحب مصر أو للخليفة التركي ، فقد وضع نصب عينيه إرضاء الجماهير بمدائحهم ، وتسبّب إلى ذلك باستشعار عواطف وطنية أو إسلامية أو عربية . ومن هنا زعمت أن شعره التقليدي في المديح وما يتصل به يختلف في جوهره عن الشعر القديم ، حتى إذا رجع إلى وطنه من منفاه وسقطت الخلافة التركية أصبح خالصاً لشعبه المصري والشعوب العربية ، فتغنى مشاعرهم وأحاسيسهم في قصائد تحملها صدورهم ، وكأنتها تعاويد صحريّة .

وكان ينظم في المناسبات المختلفة ، في الرثاء ، وفي المخترعات ، وفي أعمال البر ، وفي المنشآت القومية . وكل ذلك من أثر الجماهير والاتصال بها عن طريق الصحف ومخاطبتها . وارنفع بشعر المناسبات إلى القمة التي كانت تنتظره ، وكأنه يتحتم دورته في شعرنا الحديث ، فقد حقق له كل غاياته وأهدافه ، ولم يعد لأصحابه من بعده إلا أن يقعوا على السَّفْح من دونه ، ويرتطموا بصخوره .

والغناء آخر المؤثرات التي وقفت عندها في صناعة شوقي ، إذ حوّل جوانب من شعره إلى أغان وأزجال ، فيها وهم خياله ، وبيدعُ تصويره ، وفيها رنين أنغامه ، وحلاوة نبراته ، وفيها دقة شعوره ، ورقة حسّه . وبذلك كانت فتنة من فن عصره .

وخرجت من ذلك إلى مسرحياته ، فتحدثت عن مقوماتها العامة التي تشخصها ، وتجمع طوابعها وخصائصها ، ووزعت مآسيه في اتجاهين : اتجاه مصرى استجاب فيه للعواطف الوطنية ، واتجاه عربى استجاب فيه للعواطف العربية والإسلامية . وتفضل «حسين شوق» فأعارنى ملهارة «الست هدى» التي لم تطبع بعد، فحللتها ووصفتها في موضعها من هذه الدراسة ، وهى تحفة فريدة نسجها شوق من حياتنا الاجتماعية الواقعية في أواخر القرن الماضى .

وبهذا كله تمّ تأليف هذا الكتاب الذى لم أولفه دفاعاً عن شوق ، وإنما ألفته بحثاً منظماً في شعره الغنائى والتمثيلى . ولم أدخر وسعاً فى أن أحيق الحق حين يجب إحقاؤه وإذاعته فى غير محاباة لشوقى ولا تجنّ على غيره . فنحن لم نضع هذا البحث تشبيحاً لأنصاره وكذلك لم نضعه تعصباً لخصومه ، وإنما وضعناه ابتغاء تقويم شعره من جميع أطرافه تقويماً صحيحاً دقيقاً . والله ولى الهدى والتوفيق .

شوق ضيف

القاهرة فى أول يونيه سنة ١٩٥٣ م .